رؤيـــة..
في التصور الإسلامي للأدب

إبراهيم نويري
الجزائر

اعتنى الإسلام عناية خاصة بالكلمة الطيبة، واعتبرها سلاحه الأول في مواجهة الكلمة الخبيثة، واستئصال بذور الشر من أعماق مكنونات النفس والمجتمع.. لقد احتلت الكلمة في النصوص الإسلامية المقدسة، أو في علاقات وارتباطات المجتمع الإسلامي مكانة سامقة لم تصل إليها يوما في حضارات ومدنيات ما قبل الإسلام.. وهكذا وجدنا الكلمة الطيبة قد لعبت دورا طلائعيا متميزا وفاعلا، سواء على مستوى تأسيس المجتمع الإسلامي الأول في المدينة، أو على مستوى إنجازات ومكتسبات حركة الدعوة والفتح الإسلامي.

وعلى صعيد الكلمة الطيبة.. أو الكلمة المسؤولة يقف الأدب الإسلامي في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع الإسلامي، في المقدمة للذود عن مبادئ هذا الدين، والإسهام في الدعوة، وإعطاء الصورة الصادقة لحقيقة المجتمع، وطبيعة الحضارة، التي ينشدها الإسلام.. ونحن هنا نود التوقف قليلا قصد التعرف على التصور الإسلامي للأدب، وأبعاد هذا التصور في نطاق علاقة الإنسان بالكون والحياة والعلاقات البشرية.

الأدب في التصور الإسلامي:

يرى الإسلام أن الأدب - كسائر الفنون - هو تعبير موح عن قيم حية، وهواجس إنسانية ينفعل بها ضمير الفنان أو صاحب الروح الشاعرة.

هذه القيم قد تختلف من نفس إلى نفس ومن بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، ولكنها في كل حال تنبثق من تصور معين للحياة، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون والحياة، وبين الناس بعضهم بعضاً(١).

فالأدب - إذن - بالمعنى العام، أو وفق النظرة الشمولية تعبير متكامل عن الحياة في شتى لحظاتها وحالاتها المختلفة، أو هو إعادة تصوير انفعالي لمختلف الظواهر والحالات والتفاعلات الإنسانية والنفسية.

ونحن هنا نستطيع أن نميز بين ضربين من الأدب: ضرب يحاول أن يصور الإنسان في صورته المقهورة.. أي في لحظات الضعف.. فهو يتتبع باستمرار زلات الإنسان وعثراته وكبواته، بما فيها النابعة عن بشريته وطبيعته التي فطر عليها! ويحاول دائما، وبمختلف الوسائل أن يلطخ الفضيلة ويفسد العلائق الفطرية الطاهرة بين الناس، ويرى أن الأخلاق والحياء والمروءة إنما هي أغلال يجب إزاحتها.. ومن ثمة فإنه يحق لنا أن نسمي هذا الأدب: الأدب الأسود! أو أدب الانحلال!.

وضرب يصور الإنسان في حالاته الواقعية، ويقدر أن الإنسان ليس ملكا لا يعصي الله ما أمره ويفعل ما يؤمر، وليس شيطانا جبل على التمرد وطبع على العصيان، وليس حيوانا تحكمه غرائزه فحسب، هذا الأدب الذي يعبر

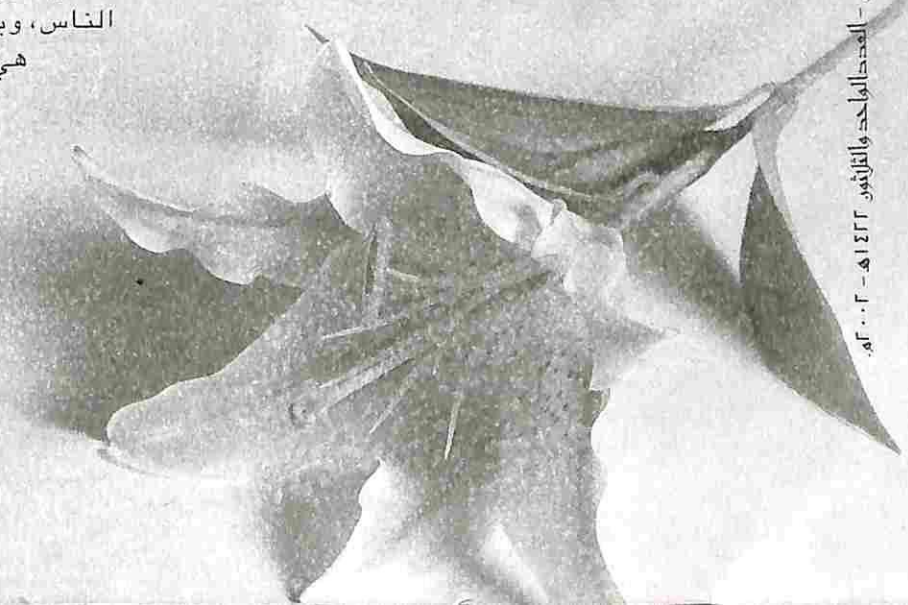

عن واقع الكائن البشري ويصف حقيقته كما هي غالبا ودوما تعبير صادق عن توازن حياة الإنسان ووسطيتها.. والمفهوم الإسلامي للأدب هو من هذا النوع الأخير.

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «إن الأدب أو الفن المنبثق عن التصور الإسلامي أدب أو فن موجه، بحكم أن الإسلام حركة تجديد وترقية مستمرة للحياة، فهو لا يرضى بالواقع في لحظة أو جيل، ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع، فمهمته الرئيسية هي تغيير هذا الواقع وتحسينه، والإيحاء الدائم بالحركة المنشئة لصور متجددة من الحياة.

كذلك ليست وظيفة هذا الأدب أو الفن هي تزوير الشخصية الإنسانية أو الواقع الحيوي، وإبراز الحياة البشرية في صورة مثالية لا وجود لها، إنما هو الصدق في تصوير المقدرات الكامنة أو الظاهرة في الإنسان، والصدق كذلك في تصوير أهداف الحياة اللائقة بعالم من البشر، لا بقطيع من الذئاب!»(٢).

وهكذا يستقر في الذهن أن الأدب الإسلامي، أو الأدب كما يريده الإسلام هو الأدب الذي يدفع الإنسان إلى الأمام، ويطلقه من إسار التخلف، ويصور الحياة الواقعية بآمالها وآلامها سواء، ويشحن النفوس بالعزم، وينير العقول بالمعارف السليمة، ويدعو إلى التراحم والوقوف إلى جانب الحق والخير والعدل والجمال.

أما الأدب الذي يصطدم بالتصور الإسلامي، ولا يجد له مكانة في واقع المجتمع الإسلامي فهو الأدب الذي يتملق الحقائق، ويتاجر بعواطف الناس، ولا يقدر مشاعرهم، ولا يصور الكائن البشري إلا في لحظاته الهابطة المتردية.. لحظات الضعف أو الخضوع للضرورة، لا لحظات الترفع والسمو والارتقاء.

وبديهي أن هذا الأدب أدب مزور؛ ولو كان لا يغفل في انفعالاته التصويرية بعض الجوانب الحيوية المركوزة في فطرة الإنسان وتركيبته الطبيعية.

المضمون في الأدب الإسلامي:

يرى بعض المتحاملين على الأدب الإسلامي أن هذا الأدب يفتقر في مضامينه إلى الجوانب الفنية والجمالية - بسبب مرتكزه الأخلاقي - التي تُعتبر القيمة الحقيقية والمقوم الأساس لكل أدب.. والواقع أن الأدب الإسلامي يحرص أشد الحرص على مضمونه الفكري النابع من قيم الإسلام العريقة، ويجعل من ذلك المضمون ومن الشكل الفني نسيجا واحدا معبرا أصدق تعبير.. ويعول كثيرا على الأثر أو الانطباع الذي يترسب لدى المتلقي، ويتفاعل معه، ويساهم في تشكيل أهوائه ومواقفه.. إن هذا الأدب يستوعب الحياة بكل ما فيها، ويتناول شتى قضاياها ومظاهرها ومشاكلها وفق التصور الإسلامي الصحيح لهذه الحياة(٣): إنه ليس من الضروري في الأدب الإسلامي أن يدور الكلام على المفاهيم الدينية وتفصيلاتها..، إن نطاقه أوسع آلاف المرات حتى وإن بدا لبعض المتحاملين أنه أدب أخلاق فقط، إن من يعتقدون أن رواد الأدب الإسلامي اليوم منحصرون في بوتقة المفاهيم الدينية المباشرة في تعاطيهم للأدب - من الناحية الفنية - واهمون وبعيدون عن الحقيقة الموضوعية، ولعل روايات الدكتور نجيب الكيلاني - رحمه الله - خير شاهد في دفع تلك التحاملات المشبوهة.

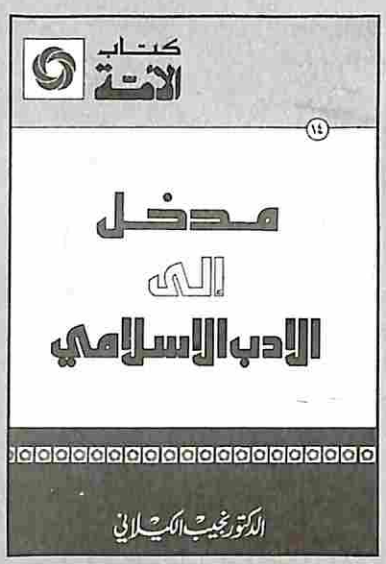

يقول الأستاذ محمد قطب في هذا الصدد: «.. الشعر الذي يتحدث عن جمال الطبيعة الفاتنة، الذي يتحدث عن القوة، الذي يتحدث عن انطلاق الطاقة البشرية للعمل والإنتاج، الذي يتحدث عن العواطف الإنسانية النظيفة، الذي يدفع ويحرك إلى الأمام، الذي يفتح الأمل أمام البشرية، الذي يشعر الناس بجمال الحياة، وأنها جديرة بأن يحياها الإنسان، الذي يتحدث عن آلام البشر، الذي يدعو إلى إزالة المظالم وإصلاح الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، الذي يصف الحياة كما ينبغي أن تكون.. كل ذلك شعر إسلامي لأنه تعبير عن الفطرة النظيفة، ولو لم يُذكر فيه مرة واحدة اسم الدين ولا مفاهيم الدين المباشرة»(٤).

ونخلص من هذا إلى أن الأدب الإسلامي أدب موجه يخاطب الفطرة البشرية، كما يخاطب الضمير العفيف وأشواق الروح، ويشكل بذلك كله تصورا عاما للحياة ولعلاقة الإنسان بهذه الحياة، وعلاقة البشرية كلها بعضها ببعض.

ولكنه في كل ذلك له أسلوبه الخاص به وطريقته المتميزة في التناول والتقدير.. فهو باختصار: انفعالات المشاعر النظيفة بمؤثراتها النفسية والروحية تجاه الطموحات الإنسانية المتقدمة، كل ذلك مع عناية بالأبعاد الفنية والصور الجمالية المتناغمة مع مضمون أخلاقي ذي طابع إنساني كوني.

فليس هناك من قيود أو سدود - إذن - تحول دون انطلاقة المضمون في الأدب الإسلامي أو الفنون الإسلامية عامة.

فالأدب الإسلامي بإمكانه تناول أي موضوع في الحياة الإنسانية دونما تحديد أو تقييد، لكن له منهجه الخاص في تناول كل موضوعاته، فهو لا ينظر إلى الظواهر مقطوعة عن خلفياتها النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وإنما هو منظور متكامل يستند إلى خلفية حضارية هي مقاصد الوحي الكريم.

الأديب المسلم وعملية البناء:

إن الأدب الإسلامي لا يمكن له أن ينطلق في عملية البناء الحضاري والتأسيس الاجتماعي إلا إذا كان الأديب المسلم واعيا ومدركا لدوره الحقيقي، مع استيعاب شامل للواقع الذي يتحرك فيه، وفقه متبصر بطبيعة وخلفيات الصراع الحضاري والفكري الذي تخوضه أمتنا.

إن الأديب المسلم لا يمكنه أن يقف بعيدا عما يجري، وإنما عليه أن يأخذ موقعه، ويسهم في حدود طاقته في عملية الإصلاح الاجتماعي، كمعالجة بعض الظواهر المرضية والتصدي لها بما يحقق المصلحة العامة لمجتمعه وأمته والإنسانية؛ ويمكن للأديب المسلم ممارسة الفعل الاجتماعي بمفهومه الواسع حتى يجعل من الأدب الإسلامي حقيقة واقعية ملموسة يحس بها الجميع.. ولا شك أن اتساع رقعة العمل الخيري يتيح إمكانية ممارسة هذا الفعل والارتقاء به إلى مستوى السلوك الحضاري الفاعل.

ومن جهة أخرى ينبغي أيضا الاهتمام بالأديب المسلم، لأننا حين نفعل ذلك نستطيع أن نسدي إليه النصح والتوجيه، ونذكره بحق المجتمع عليه؛ بأن يعيش قضاياه، ويعبر عن طموحاته وأمانيه، ويرسي - قبل ذلك - دعائم الحق والخير فيه، مع ريادة الآفاق المتنوعة المتكاملة التي تشيد بناءه الوجداني، مع نكران للذات وبُعد عن التماس الشهرة، واحتساب ذلك كله عبادة لله تعالى (٦)؛ إن الأديب المسلم مطالب اليوم بأن يفقه معادلة التوفيق والتوازن بين الحق والواجب.. وذلك طريقه إلى الوعي والالتزام.

وهذا الطريق واضحة منائره ومعالمه.. لأنه وحده الطريق المؤدي إلى تحقيق الرضوان الأعلى في الآخرة، ونفع الإنسانية اليوم في هذه الحياة التي نعيش، ومن جهة أخرى فإن المتبصرين بهذه المجالات من النقاد وأصحاب الفكر والرأي عليهم واجب مقدس، يمليه عليهم ويفرضه ضميرهم الديني وشعورهم النظيف، ألا وهو واجب مؤازرة الأديب المسلم في إبلاغ رسالته، وتنويره بالأفكار والآراء والنصائح والمقترحات التي تساعده وتفتح أمامه آفاقا رحبة، وآمادا شاسعة.. فيمضي في طريقه مطمئن السريرة، موصول الخطى، متوقد العزم.. وبتلك الصورة التكاملية الرائعة تؤدى الرسالات الكبيرة وتتفوق المهمات النبيلة الخيرة، وينتصر الحق والعدل.

١- سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، ص ١١، دار الشروق، بيروت.

٢- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ٢٨٤، دار الشروق، بيروت.

٣- انظر: د. نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص ٣٤، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة.

٤- محمد قطب، معركة التقاليد، ص ١٣٤/١٣٥، دار الشروق، بيروت.

٥- محمد مراح، في الأدب الإسلامي، مجلة العالم اللندنية، العدد رقم ٢٨٨.

٦- د. محمد عادل الهاشمي، في الأدب الإسلامي.. تجارب ومواقف، ص ٣٣، دار المنارة، بيروت.